وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إرهاصات علمنة الحج

فهمي هويدي

انتابني قلق شديد حين رأيت هذا المشهد عند جبل عرفة : بعض الحجاج الآسيويين تجمعوا حول جمل أحضره أحد الأعراب وطوق عنقه ببعض الورود الصناعية زاهية الألوان . ثم وضع إلى جانبه سلما ييسر لمن يريد الصعود فوق ظهر الجمل . والتقاط الصور عليه بملابس الإحرام! .

اعتبرت المشهد عدوانا على قداسة المكان واللحظة . ولمن لا يعرف ما الذي يعنيه تصرف من ذاك القبل ، فإنني أذكر بأن الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم للحج . ليس هذا فحسب ، وإنما " الحج عرفة " ، كما ورد في الحديث النبوي . ولحظات الوقوف بعرفة هي لحظات جليلة نادرة ، حافلة بالتبتل والضراعة والتوجه إلى الله بالدعاء والرجاء طول الوقت . وحين يلقي اسم عرفة أمام أي مسلم له أدنى إلمام بالدين ، فإن أول ما يخطر على باله هو منظر الحشود المليونية التي قدمت في كل فج عميق ، واخترفت شعاب مكة في اليوم التاسع من ذي الحجة حتى أخذت مواقعها فوق الجبل وعلى سفوحه ، في ذات المكان الذي ألقى فيه النبي صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع ، ومنه أرسل آخر كلماته إلى الأمة قبل أربعة عشر قرناً . ثم صورة تلك الحشود المليونية بثياب الإحرام البيضاء وقد رفعت الأكف إلى السماء في يوم الغفران العظيم بقلوب مملوءة بالخشية ، ووجوه شاخصة بالضراعة ، و ألسنة تلهج بالدعاء ، وآمال صادقة في ارحم الراحمين . فالكل يعلم أن أفضل الدعاء دعاء عرفة و أنهم يعيشون يوماً هو من أفضل أيام الله ، حتى يباهي الله فيه بأهل عرفة أهل السماء .

و آخر ما يخطر على بال المرء أن يرى شيئاً مما رأيت ، يهتك حرمة اللحظة النادرة ويفرغها من كل الجلال و الثراء الكاهن فيها . ثم يتعامل مع عرفة بحسبانه " مزارا سياحياً " ، مثله مثل أهرامات الجيزة أو قلعة بعلبك !.

أدرى أنها حالة وحيدة – في حدود ما رأيت على الأقل – و أن المشهد كان استثنائياً ، ومن ثم فإنه من المبالغة والتغليط أن نعطيه أكثر من حجمه ، فنحوله إلى قضية ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لذلك فما كان لي أن أذكره لو لا أنني وقعت أثناء الحج على مشاهد أخرى ماضية في ذات الاتجاه . حين جمعتها جنباً إلى جنب ،كونت لدى بؤرة للقلق يتعذر تجاهلها أو كتمانها ، فقد بدت تلك المشاهد و كأنها إرهاصات مبكرة لما يمكن أن نسميه " علمنة الحج " . و أقصد بالعلمنة عنا توظيف العبادي والإيماني لصالح المنفعة والاستثمار ، أو تراجع الروحي لصالح النفعي والمادي .

أكرر أنها مجرد إرهاصات مبكرة ، لكن ما يدعوني إلى لفت النظر إليها والتحذير من تداعياتها أن ريح العلمنة قد اجتاحت ركنا آخر من أركان الإسلام هو الصوم ، في بعض الأقطار العربية على الأقل . حيث تحول فيها شهر رمضان "المبارك " ، من شهر للعبادة واغتسال الروح إلى شهر المسلسلات والفوازير وسهرات المرح والثرثرة وتدخين النرجيلة — حتى أصبحت النرجيلة في عاصمة بحجم وعمق القاهرة مثلا ، من العلامات المميزة لطقوس الشهر الفضيل !.

هكذا ، فإن مخاوفي من علمنة الحج لا تنطلق من فراغ ، و إنما تستند إلى سابقة ثابتة أصابت شهر الصيام وفرغته من مضمونه ، ثم عبأته بمضمون مغاير ، مناهض تماما لكل ما ينبغي عمله في هذه المناسبة . حتى إننا لا نبالغ إذا قلنا إن الأغلبية الساحقة مما تقدمه وسائل إعلامنا في ذلك الشهر ، هو نموذج لكل ما ينبغي تجنبه والإعراض عنه في رمضان .

أما ماهية المشاهد الأخرى التي عززت مخاوفي من احتمالات علمنة الجد فإنني سأورد ثلاثة منها ، و أرجو أن أكون مخطئا في تقديري لها أو سوء ظني بها .

- المشهد الأول يصادفه الحاج في الطريق البري من جدة على مكة . ذلك أن المتجه إلى بيت الله الحرام الذي يستغرق في التلبية والتكبير وهو يستهل رحلة حجه المبرور يوطد نفسه منذ نزوله إلى مطار جدة على العيش في أكناف تلك العبادة الجليلة التي عدها النبي من أفضل الجهاد ن واعتبر جزاءها الجنة لمن حسن عمله وخلصت نيته .
- في الطريق تتملك المرء مشاعر الشوق والرهبة ، ولا يكون على لسانه سوى الدعاء والذكر ، لكنه إذا ما رفع رأسه وتطلع حوله ، فسوف ينتزع على الفور من كل الإطار الذي وضع نفسه فيه أو وطد نفسه عليه . ستلاحقه الإعلانات الصارخة حتى تخرجه من سياقه ، بدءا من " إطارات بريجستون " و إلكترونيات سامسونج

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ومكيفات جنرال وبويات بايرون ، ومرورا بساعات سايكو وسيتيزن ورادو ولا فتات قزاز ، و إنتهاء بـ " موفينبيك ، آيس كريم سويسرا الفاخر "!

- و إزاء كثافة الإعلانات يكاد الأمر يختلط ، فلا يعرف المرء عن كان الطريق مؤديا على بيت الله أم إلى السوق ، وهل هي رحلة حج أم زيارة لمعرض صناعي وتجاري ؟! وفي حين يتوقع المرء أن يجد على الجانبين لا فتات أو إرشادات تذكرة بما ينبغي أن يفعله أو يردده من أدعية مأثورة في هذه المناسبة ، وتؤهله للدخول في التجربة العظيمة والمهيبة وتشبع شوقه إلى أداء المناسك ، فإن الإعلانات عالية الصوت بإيحاءاتها غير الخافية المبثوثة على جانبي الطريق تغريه بألا ينصرف كلية إلى ما عزم عليه ، إذ تغمز له قائله : لا تنس أن هناك دنيا ، لها حظ في زيارتك ، وموضوعا على استحياء ، وعند الحد الأدنى ، وما ينبغي أن ينساه المرء في رحلة الحج ويلقيه وراء ظهره ، فرض نفسه عليه ولاحقه حيثما اتجه .
- لست أشك في أن الذين وشعوا تلك الإعلانات الكبيرة لم تخطر على بالهم مسالة العلمنة التي أتحدث عنها ، لكني لا اشك أيضاً في أنهم لم يفرقوا بين طريق مؤد إلى مدينة مقدسة ،و آخر موصل إلى مدينة عادية وكل الدلائل تشير على أن مسألة القداسة تم غض الطرف عنها في هذا المشهد ، الأمر الذي أحدث ثغرة في المنظومة أوصلت الطريق على ما وصل إليه . حتى أصبح خصماً من الحج ، وليس عونا عليه أو إضافة له ن بل إن المقارنة بين الإعلانات التجارية الكبيرة وبين اللافتات الصغيرة التي حملت بعض العبارات ذات الإيحاءات الإيمانية ، جاءت دالة على مدى تراجع الإيماني لصالح ما هو تجاري ونفعي في المشهد .
- المشهد الثاني يفاجئ المرء حين يتجه إلى الكعبة المشرفة ، ويلاحظ أنها أصبحت محاصرة بحزام من الأبراج السكنية العالية ، التي جثم بعضها على صدر المكان المقدس ، ومنها ما تكأ على كتفه بأكثر مما ينبغي ، ومنها ما جار على فضائه بأكثر من اللازم ، الأمر كاد يؤدي إلى خنق الحرم والنيل من جلاله وهيبته ، أدري أن كل من توجه للحج أو العمرة تمني أن يملأ عينيه من المكان طوال الوقت وبذل كل ما في وسعه لكي يظل لصيقا به ومجاورا له . ومن الواضح أن المخططات المعمارية المحيطة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالكعبة استثمرت تلك الرغبة إلى أبعد مدى ، لكي تحقق من ورائها لأصحاب الأراضي والعقارات أعلى إيراد ممكن . ليس ذلك فحسب ، و إنما سعت تلك المخططات إلى تطويق الكعبة بحزام من المحلات التجارية والأسواق ، التي تعمل في موسم الحج من الفجر وحتى منتصف الليل .

- لا تحتاج العين الزائرة إلى جهد لكي تدرك أن الكعبة تئن تحت وطأة ذلك الحصار العمراني الذي فرض عليها، و أن تلك الأبراج الشامخة تحولت إلى قذى في عيون القادمين من أنحاء العالم الذين أرادوا أن تكتحل أعينهم بمشهد بيت الله العتيق والكعبة المشرفة ، فإذا بتلك البنايات تقطع عليهم الطريق وتفسد عليهم المتعة ، حتى تحولت على " ضره " لمآذن الحرم في أفق المدينة .

وضع الحرم النبوي في المدينة المنورة أفضل نسبياً من وضع الحرم المكي ، من حيث إن الأول أتيحت له مساحة من الأرض الفضاء أحاطت به ، وخفت من حدة الحصار العمراني ، رغم أن عملية الإنشاء ماضية على قدم وساق بحذاء الأضلاع الأربعة للحرم النبوي ، وحزام الأسواق والدكاكين يلتف حول الحرم بإصرار مدهش ، حتى إنك لا تكاد تغادر مسجد النبي عليه الصلاة والسلام حتى تواجهك لافتة كبيرة تشدك إلى سوق مكون من ثلاث طوابق، أسفل بناية ضخمة ، وتخبرك بأن المحلات مفتوحة طيلة الأربع وعشرين ساعة !.

حين رأيت ما فعله المخططون المعماريون بالحرم المكي ، خطرت لي قصة الفرنسين مع المسلة الفرعونية المصرية ، التي وضعوها في " بلاس دي لا كونكورد " أكبر ميادين العاصمة ، و أحاطوها بفضاء شاسع لا يرى في الأفق شيء بجوارها . حتى البنايات السكنية روعي أن تكون أدنى منها . وقلت إن الحرمين أولى بشيء من هذا القبيل . و إن الجهد الهائل الذي بذل في خدمتهما وتوسيعهما ، لو أنه عالج هذه الثغرة وتكفل بفك الحصار الذي زحف عليهما بشدة وقسوة ، حتى تاهت مدائن الحرم المكي وتضاءلت على جوار غابة الأبراج المحيطة ، لو حدث ذلك لبلغ الجهد المبذول مبلغ الكمال فضلا عن الجدال .

لقد وقع المخططون المعماريون في ذات الخطأ الجسيم الذي نشأ عن عدم الانتباه الكافي إلى صفة " القداسة " في مكة والمدينة ، الأمر الذي جعلهم ينشغلون بكيفية استثمار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأراضي على أوسع نطاق وبأعلى " كفاءة " ، لكي يتيحوا لأكبر عدد من الزوار القادمين معايشة الحرمين دون تحمل أي عناء ، الأمر الذي له مردوده المادي الكبير كما هو معلوم ، حتى كان الحرم المكي هو الضحية الأولى لهذا المنطق النفعي ، لأنه وحده تحمل كل العناء . ولو أنهم خلوا بين العمران وبين الحرم ، ويسروا الانتقال بين أماكن الإقامة ومكان العبادة ، لكان ذلك أوفق لا ريب ، وأنجح في الحفاظ على جلال المكان وهيبته .

- أما المشهد الثالث والأخير ، فهو يتمثل في بدعة " الحج السريع " التي حولت الحج من عبادة لها أركان ومناسك إلى رحلة خاطفة لمجرد التوقيع بالحضور في مواضع المناسك ، وفيها تحول الحاج إلى زبون مطلوب توفير أقصى راحة له ، ورفع التكليف والمعاناة عنه ، و أصبح الحج مجرد " خانات " تملأ بأقصى سرعة ممكنة ، وبمقدار ما يرفع التكليف والعناء ويختصر الوقت بمقدار ما ترتفع القيمة وتتضاعف الأجرة !.

في " الحج السريع " أنت سائح ولست عابدا . لا وقت تقضيه في الكعبة أكثر من الساعتين اللتين يتم اتقاؤهما في غفلة من الآخرين للطواف والسعي ، بعد أن تخطف مروراً بمنى ثم صعود إلى جبل عرفة ، حيث تمكث فيه ساعة أو بعض ساعة . اما رمي الجمرات فقد رفعت عنك مشقته ، بعد ما أصبحت الشركات المعينة تخصص بعضاً من موظفيها لكي ينوبوا عنك فيما يتعين عليك القيام به .

باختصار أنت لا تتعبد في الحج ولكنك تتفرج عليه ، من ثم فأنت لا تعيش الحدث و إنما تمر به . الأمر الذي قد يقنعك في النهاية بأنك قمت بالواجب وسددت الخانات ، لكنه لا يضيف الكثير إلى رصيدك المعنوي ولا يشبع شيئاً من أشواقك الروحية، وقد تعود منه مرتاح الضمير ، لكن حصيلة الأجر والثواب فيه تظل محل شك كبير !.

تحتاج رحلة الحج في المتوسط إلى ما بين عشرة أيام و أسبوعين كحد أدنى لكي يعيش الإنسان التجربة ، ويؤدي العبادة وينهض بالمناسك حسب أصولها (بعض الحجاج الأفارقة والآسيويين لا يقل مقامهم بمكة والمدينة عن شهر) . غير أن منطق " الترشيد " و " تعظيم الفائدة " حين فرض نفسه على الساحة عمد إلى اختصار المدة و إختزال زمن العبادة ، مستثمرا الرخص التي يفترض أن تظل استثناء ولا تستخدم إلا عند الضرورة . وهي التي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تجيز الإنابة في القيام ببعض التكاليف ، وتسمح بالفداء وذبح " الهدى " في حالة عدم النهوض بواجبات أخرى .

كانت النتيجة أن أصبحت الشركات التي سوقت فكرة الحج السريع تبيع رحلة للحج تستغرق خمسة أو ستة أيام ، فيما يمكن أن نسميه " الميني حج " ، وقد شجع ذلك آخرين على ابتداع نوع آخر مختصر للغاية ومختزال إلى حد ضغط كل المناسك و إنجازها من خلال الركض المستمر في حدود يوم أو اثنين ، الأمر الذي ينطبق عليه وصف " المايكرو حج " . وهاتان الصيغتان – الميني والمايكرو – تمثلان أعلى مراتب علمنة الفريضة حيث يطمس إلى حد كبير ما هو معنوي وروحي ، ولا يبقى من الحج إلا ما هو شكلي و إجرائي .

في النصف الملآن من الكوب ، لا بد أن يرى المرء ما طرأ على الحرمين الشريفين من توسعات عظيمة وفرت لتلك الحشود المليونية خدمات وتسهيلات لم تكن تخطر على بال ، ورفعت عنها بصورة نسبية قدراً من المعاناة، خصوصاً في الطواف والسعي . و أحسب أن تلك التوسعات تمثل بكل المعايير نقلة حضارية وتاريخية واسعة في قدرة الحرمين على استيعاب البشر ، الأمر الذي يستحق كل تقدير وثناء .

نعم تظل تلك الكتل البشرية هائلة الحجم خارج السيطرة لأسباب موضوعية كثيرة ، وفي وضعها ذاك ، فإنه يستحيل توفير أسباب الراحة للجميع ، ووقوع حادث كحريق مني ، الذي جرى في يوم عاصف تكلفت فيه الريح بدفع اللهب و توزيعه ، أمر قد لا يمكن تجنبه ، ومن ثم فلا ينبغي أن يقلل من الجهد المبذول لخدمة الحجيج ورعايتهم.

في النصف الملآن من الكوكب ، لا يستطيع المرء أن ينسى صورة الحشود المليونية وهي تطوف حول الكعبة في حركة لم تتوقف منذ الأزل وموصولة بإذن الله إلى الأبد . إنه مشهد يجسد الالتفاف حول الراية والاعتصام بحبل الله ، ويؤكد تماسك العقيدة وثباتها واستمرارها ، وهو إعلان بالحضور صامت وجليل ، يتحدي مزاعم النفي والإقصاء و أوهام الاستئصال .

في النصف الملآن من الكوكب ، يرى المرء لنفسه حجما آخر و انتماءً أوسع ، فهو في الحج جزء من أمة عريضة عملاقة حافلة بالتنوع والثراء ، وقادرة على أن تفعل الكثير ، وجيشها المليوني الذي يجتمع كل عام في الكعبة يجسد تلك الحقيقة ، نعم يظل الحج لحظة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ربانية بامتياز ، لكنه أيضاً لحظة اكتشاف الأمة لذاتها وتجديد وشائجها وتأكيد انتمائها .

ومعذرة إذا كانت البقع السوداء قد نالت حظا أكبر من الحديث ، حتى جارت على حتى فرحتنا بالثوب الأبيض !.

This file was downloaded from QuranicThought.com